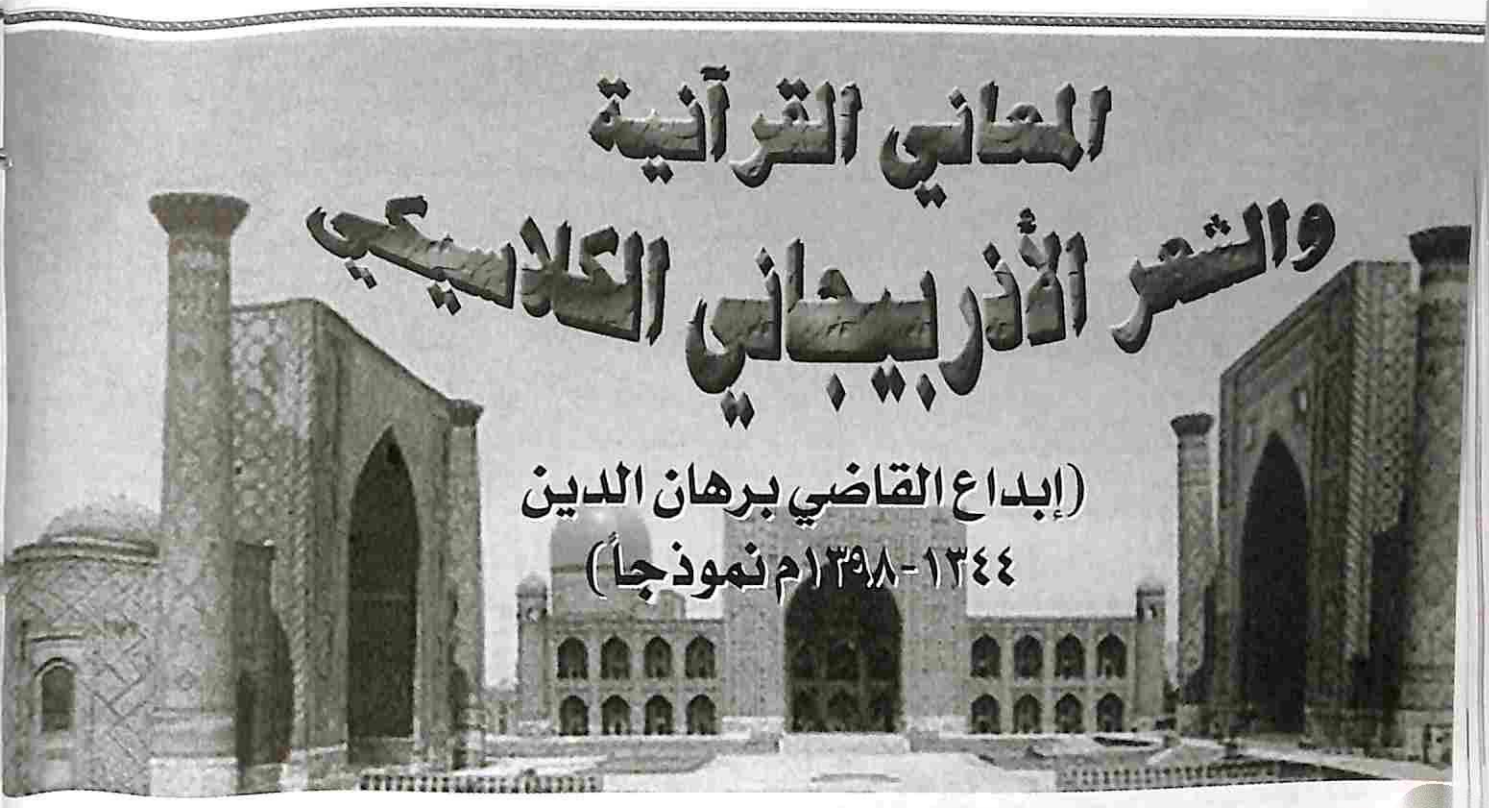

المعاني القرآنية والشعر الأذربيجاني الكلاسيكي

(إبداع القاضي برهان الدين ١٣٤٤-١٣٩٨م نموذجاً)

بقلم: د. عائدة قاسم*
اذربيجان

ليس بين المشتغلين بدراسة الأدب وتاريخه من ينكر الأثر البليغ الذي تركته في الأدب – ولا تزال – العقائد الدينية، لكونها عاملاً حاسماً في العالم المعنوي والعقلي لكل قوم. فإن نمد بصرنا إلى أول نماذج الأدب في تاريخ البشرية، أي إلى نماذج العهد المبكر مثل ملحمة «كلكامش» فنرى أنها ليست نموذجاً أدبياً فقط. بل نموذجاً دينيا شبه أسطوري ديني. وليس من باب الصدف أن الأدب اليوناني القديم كان مرتبطاً ارتباطا وثيقاً بالأساطير اليونيانية القديمة، ثم أخذ الأدب بعد ذلك بعض صوره المجازية الرمزية من الكتب السماوية : أمثال العهد القديم والعهد الجديد. كما أفاد الأدب من القرآن الكريم وارتوى منه كمعين ديني صاف لا ينضب، وانتفع من معانيه العميقة.

ومن هنا يسرع إلى البال قول العالم E,M Meletinski الروسي بأن الأدب خلال نموه وتطوره طويل المدى استفاد وانتفع من الأساطير التقليدية الدينية للغايات البديعية الفنية[١]. لا يدور الحديث هنا في تبعية الأدب للدين، بل في امتزاجهما واتحادهما واتصالهما في خطواتهما الأولى[٢].

لقد أثرّ الإسلام الذي ظهر إلى الوجود في شبه الجزيرة العربية وانتشر الى مسافات شاسعة من الهند إلى الأندلس تأثيراً عميقاً في العالم المعنوي والنفسي لكثير من الشعوب . كذلك القرآن المجيد الذي كان معجزة الإسلام الكبرى ومفخرة المسلمين قد ترك في مظاهر حياتهم آثاراً لا تندثر. « إذ لم يبلغ أي كتاب ديني أو دنيوي ما بلغه من روعة البيان والبلاغة ومس المشاعر وأسر القلوب»[٣]، هذا لأنه يشمل كل جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والمعنوية العقلية للمسلمين. ولا نبعد عن الحق إذا أكدنا أنه لا يوجد في تاريخ البشرية كتاب آخر له هذه الآثار العميقة في قلوب ونشاط من آمنوا به بحيث إن كل طفل ولد في العالم الإسلامي كان ولا يزال يدرس القرآن الكريم ويتعلم آياته وسوره منذ طفولته حتى انتقاله إلى رحمة الله سبحانه وتعالى، ويقرأ الكلمات المقدسة المكتوبة على الأوراق والمنقوشة على جدران البنايات والآثار المعمارية ويحفظ الآيات القرآنية عن ظهر قلب حتى يطلقها في

* أستاذ الأدب العربي في جامعة باكو الحكومية في اذربيجان.

نطقه ومؤلفاته من بعدُ عفوا غير متكلف بوصفها تجمع كل عالمه بمعانيها العميقة وتخص كل جوانب حياته وسلوكه ونمط حياته.

إن القرآن الكريم ليس أبرز نموذج للبلاغة والفصاحة والمحاسن الأدبية فحسب، بل هو كتاب يطوي في طياته غير قليل من القصص التي تتميز بقيم روحية معنوية، وبمزايا أخلاقية أدبية ومنها قصص الأنبياء التي فيها عبرة لأولي الألباب (سورة يوسف ١١١).

ويرجع تاريخ الانتفاع في آداب شعوب الشرق بقصص الأنبياء إلى زمان ما قبل الإسلام . إلى العهد الجاهلي، وهذا بسبب انتشار النصرانية واليهودية في بعض القبائل، وبلغت بعضها قوة وقدرة وعظمة كبيرة ونسوق على سبيل التمثيل قول العرب في قبيلة تغلب النصرانية: «لو لم يأتِ الإسلام لأكلت تغلب الناس».

استثمر بعض الشعراء هذه القصص لصقل المعاني وإصابتها، مثلاً عرض لبيد بن ربيعة في أشعاره لقصة داوود عليه السلام، كما تناول النابغة الذبياني والأعشى قصة سليمان عليه السلام[٤]، ونعثر على المقتبسات والتلميحات المتصلة بقصص الأنبياء في النماذج الزخرفية من إبداع الشعراء المسيحيين أمثال عدي بن زيد [٥] وأمية بن أبي الصلت[٦].

لما ظهر الإسلام إلى الوجود فاضت على ألسنة شعراء العرب المعاني والصور والمجازات المرتبطة بقصص الأنبياء لأنه بعد أن أوحيت هذه القصص إلى رسول الله ﷺ وجاءت في القرآن المجيد أصبحت أكثر رواجاً بين الناس وأسرع تسرباً إلى الأدب، وليس من باب الصدفة أن العسكري جعل في كتابه « ديوان المعاني» باباً منفصلاً للمعاني القرآنية .

لا نرغب في تفصيل القول عن الحيز الهام الذي يفسح لهذه القصص في كتب التاريخ وتفاسير القرآن الكريم، وفي معاجم الحديث، وفي كتب قصص الأنبياء، كما لا نريد الاسترسال في آثارها العميقة في آداب مختلف الشعوب ابتداء من الملحمات الفارسية والتركية في موضوع قصة يوسف حتى المجازات المتصلة بهذه القصص في الأشعار العاطفية القصيرة.

• أصبح الأدب الأذربيجاني في القرون الوسطى جزءاً لا يتجزأ من الأدب الإسلامي.

ولو أردنا أن نستشهد بكل هذا لم يتسع لها هذا المقال ونكتفي بالعرض الوجيز لإبراز تأثيره في الأدب الأذربيجاني الكلاسيكي استناداً إلى أشعار القاضي برهان الدين – وهو من الأصوات المدوية في قافلة الشعر الأذربيجاني للقرون الوسطى.

إن الأدب الأذربيجاني في القرون الوسطى لم يكن ظاهرة أدبية منفردة منعزلة، بل أصبح هذا الأدب جزءاً لا يتجزأ من الأدب الإسلامي العام، جزءاً متصلاً بأواصر لا تهترئ ولا تنقطع بآداب الشعوب الإسلامية الأخرى. ومن المعلوم أنه في تطور ونمو كل أدب يبرز اتجاهان:

أولهما : الانتفاع بالتقاليد الأدبية القديمة للأسلاف.

وثانيهما: نشوء المحدثات والتجديدات والمعاني المبتكرة.

كل من هذين الاتجاهين يظهر متعلقا ومتصلاً بالظروف التاريخية المواكبة ومنوطاً بتنمية التمدن القومي. إن الاطلاع على أول نماذج الأدب الأذربيجاني يبرز بكل وضوح أن هذا الأدب مرتبط أوثق ارتباط بالتقاليد الأدبية القديمة للأدب الشرقي، وأوضح دلالة على ذلك الاتصال هو العروض والقوافي – هاتان المحصلتان لقريحة شعراء الجاهلية، وكذلك الصور البديعية التقليدية التي لقيت رواجاً بليغاً وانتشاراً واسعاً في آداب كثير من شعوب الشرق . وهي تستلفت الانتباه لا سيما المجازات والرموز الدينية التي تداني آداب مختلف الشعوب الإسلامية، وهذا نتيجة تغلغل ونفاذ التصورات الدينية العامة للآداب ربما G. Gzunebaum هو الآخر انطلق من هذا المنطلق عندما بحث في تأثير القرآن الكريم في الأدب الإسلامي وذكر المقتبسات والتلميحات والمجازات المتعددة المأخوذة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة[٧].

إن استقراء المعاني القرآنية في الأدب الأذربيجاني الكلاسيكي قضية هامة للغاية . ولكنّ هذه المسألة خلال سنين طويلة كانت محرمة في هذا البلد المسلم الذي عانى كثيراً من الدعاية الإلحادية للنظام الشيوعي الحاكم، وليس بمستغرب أن العديد من الباحثين إبان العهد الشيوعي من خلال دراستهم إبداع عباقرة الأدب

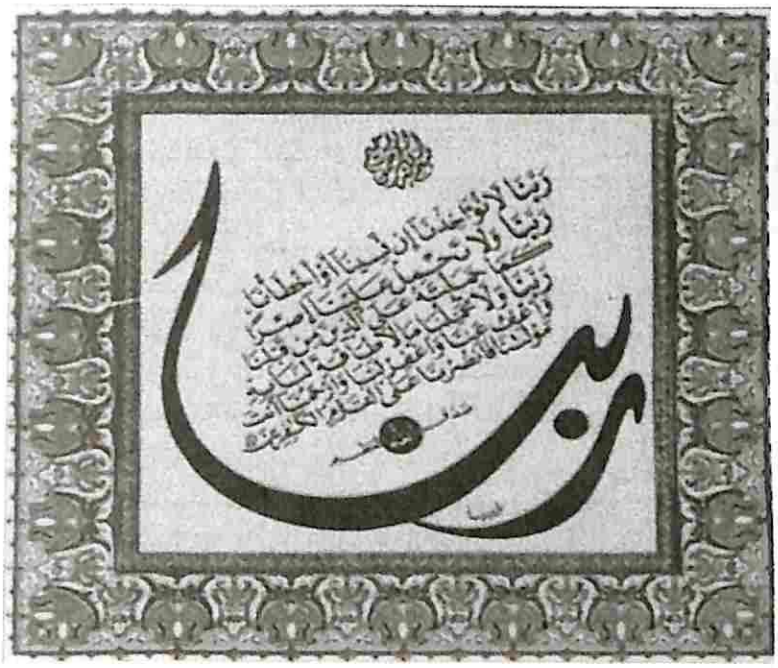

الأذربيجاني أمثال نظامي كنجوي، وخاقاني شيرواني، وقاضي برهان الدين، وعماد الدين نسيمي، ومحمد فضولي، وغيرهم ذهبوا يزعمون أن أولئك الشعراء والأدباء كانوا ضد الإسلام وفي مؤلفاتهم أفكار وآراء تتناقض مع القرآن الكريم رغم أن كل معنى من معاني نماذج قريحتهم تشرب بالحكم القرآنية، هذا لأنهم عاشوا وترعرعوا في القرون الوسطى – في عهد انتشرت فيه العقائد الدينية إلى الحد الأقصى، وهم تلقوا علومهم لدى أشهر علماء وفقهاء عصرهم، وبرعوا في دراسة القرآن المجيد والأحاديث البنوية . إذن لا يتطرق الشك إلى أن كل هذه الملاحظات المخطئة المغرضة هي أيضاً من التأثيرات الأيديولوجية الشيوعية، لأن مؤلفات أولئك الأدباء والشعراء أنفسهم حافلة بالأفكار والأخلاق الإسلامية، وكان القرآن الكريم معين إلهامهم وينبوع إبداعهم.

إن للمعاني والموضوعات القرآنية في الأدب الأذربيجاني الكلاسيكي آثاراً لا تندثر من حيث الفن والبلاغة والفصاحة والصور البديعية الأنيقة، وكذلك من حيث الأفكار العميقة التي تأصلت في الأدب تأصلاً جذرياً ودراسة المعاني القرآنية تكتسب أهمية خاصة في الكشف عن المعاني الرمزية الواسعة الانتشار في الشعر الكلاسيكي وكذلك في اكتشاف الرؤية الدينية الفلسفية لرجال الأدب.

***

كان القاضي برهان الدين من فحول الشعراء المنشدين بالتركية التي ابتداءً من القرن الثالث عشر تنافست وتبارت في ميدان الأدب باللغتين العربية والفارسية. وهو إنسان ذو موهبة شعرية دافقة الفيض، ولم يكن شاعراً فقط، وكان حاكماً مقتدراً قوياً، وقائداً شجاعاً، وقاضياً خبيراً في علوم الدين، وقد حكم في «قيصرية» و «سِواس» و «أرزنجان» وسعى طوال حياته إلى الحكم والسطوة، كان حريصاً على السيطرة ولكن لم يجد سعادته في هذا المنهج وأصبح ضحية قدر لا سبيل إلى الإفلات منه، وفي إحدى المعارك حضرته الوفاة في ميدان الصراع (١٣٩٨م).

مات القاضي برهان الدين حاكماً وقائداً، ولكن لم يمت ذكره شاعراً وأديباً، وخُلّد في آفاق الأدب بملكته الشعرية العظيمة وعواطفه المخلصة . ترك القاضي ديواناً ضخماً باللغة التركية، وله أشعار كذلك بالفارسية، وصنف مؤلفات في الدين والأدب، ويمثل شعره واحة أنيقة من واحات الشعر الأذربيجاني .

قبل أن نبدأ باستقصاء المعاني المتصلة بقصص القرآن في شعره نحاول أن نظهر تأثير الإسلام في أدبنا من جهة لفظية. ونلفت النظر إلى الاصطلاحات الإسلامية في ديوان القاضي برهان الدين لنصوّر رؤية عامة لذخيرة الاصطلاحات الإسلامية الموجودة في أدبنا الكلاسيكي.

الألفاظ المرتبطة بأحكام الإسلام وفلسفته مثل: توحيد، القضاء والقدر، التوكل، كفر، التجلي، توبة، تجريد، قيامة، الفناء والبقاء، حلال، حرام، إيمان، زهد، رحمة، لطف، ...إلخ.

– الله تعالى وأسماؤه مثل:

الرب، الحق، خالق، فالق الإصباح، الله تعالى، حي، قيوم، الله أكبر، الاسم الأعظم، منان، ...إلخ.

– القرآن الكريم، سوره وآياته مثل:

مصحف، السبع المثاني، فاتحة، يس، مرسلات، عاديات، ساجدات، نازعات، مائدة، نساء، الرحمن، الشمس،الضحى،...إلخ.

الأسماء الجغرافية المتصلة بالإسلام مثل:

حجاز، كعبة،عرفات، بطحاء، مكة، مروة، خيبر، زمزم، ...إلخ.

- الألفاظ المتصلة بالعبادات الإسلامية مثل:

محراب، قبلة، غسل، سجادة، مسجد، طواف، زكاة، سجدة، عبادة، وضوء، تسبيح، الحجر الأسود.

- الألفاظ المرتبطة بالآخرة مثل:

الصور، الصراط المستقيم، أصحاب الأعراف، رضوان، كوثر، نعيم، جحيم، جنة، الفردوس الأعلى، نار، جهنم، زمهرير، عدن، ملك، الروح الأمين،، روح القدس، معاد، نفخ الصور، عظام رميم،...إلخ.

أسماء الأئمة والصحابة والأولياء مثل:

أبو بكر، عمر، عثمان، علي، جعفر، حسن، حسين،، بلال، سلمان، الجنيد، .

يذكر في ديوان القاضي برهان الدين ذو الفقار ودُلْدُل، سيف وجواد علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

إننا إذ نأخذ كل هذه الألفاظ والاصطلاحات والأسماء منفصلة من ديوان القاضي يخيل إلينا أنها من مصدر ديني . وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: وكيف تمتزج هذه الاصطلاحات والموضوعات القرآنية بروح شعري بديعي؟

إن دراسة ومعالجة شعرنا الكلاسيكي تبرهن على أن الاصطلاحات والمقتبسات الإسلامية القرآنية لا تقلل ولا تنقص بديعية أشعار القاضي والشعراء الآخرين، بل تعطي لها المزايا الأنيقة والمعاني العميقة.

وتفيض المعاني القرآنية على لسان القاضي برهان الدين وعند معالجة هذه المعاني نرى بعض الأبيات التي استشهد بها في شعره باللغة العربية . بينما تجري بعضها باللغة التركية . وكثيراً ما نعثر على المقتسبات التالية : «لا إله إلاّ الله»[٨]، «نور على نور»[٩]، «الله لطيف بعباده»[١٠]. كذلك يقتبس الشاعر بعض الآيات القرآنية بالمعنى، لا باللفظ مثلاً : الآية ١٧٣ من سورة البقرة ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. وردت في ديوانه على هذا المنوال:« من اضطر ما عليه ما جناه»[١١].

وكما ذكرنا تجري بعض المعاني القرآنية في شعره بالتركية: (الدم بالدم – هي الشريعة Baziat buduz ki, qana-qan ga-zak)[١٢]. يقرب هذا المعنى من الآية ١٧٨ لسورة البقرة :﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى﴾، وكذلك من الآية ٤٦ من سورة المائدة.

عرض القاضي برهان الدين لقصص القرآن مرات عديدة، وكثيراً ما نجد المقتبسات والتلميحات من قصة آدم (٤٠ مرة)، قصة نوح (٨ مرات) و قصة إبراهيم (١٦مرة)، قصة يعقوب ويوسف (٢٨ مرة)، قصة موسى (٢١مرة)، قصة أيوب (٣ مرات)، قصة الخضر ٢٠ مرة، قصة عيسى ابن مريم (٢٢ مرة)، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام. وقد أشار الشاعر كذلك إلى قصة قارون (٤ مرات)، وقصة ذي القرنين (مرتين)، وقصة أصحاب الأخدود (٣ مرات)، وقصة أصحاب الفيل (مرتين) . كما وجدت السبيل إلى أشعاره المجازات المرتبطة بالسيرة العطرة لنبينا محمد ﷺ : قصة المعراج (١٤مرة) وشق القمر (٧ مرات)، انشراح الصدر (مرة واحدة).

ويختلط في مجازاته المرتبطة بقصص القرآن التأمل الفني بالتأمل الفلسفي الديني وتمتزج أحاسيسه العاطفية بأفكاره الفلسفية الحكيمة، ويظهر كل هذا بجلاء ووضوح في مجازاته المتصلة بقصة آدم، ويتطرق الشاعر في تلميحاته إلى هذه القصة للمسائل والقضايا التي تشغل باله، هي خلق الإنسان، فضل الإنسان على جميع المخلوقات وحب الإنسان لربه وحب الله للإنسان ...إلخ. وكل هذا استناداً إلى الآيات الكريمة (الحجر ٢٦، الحج ٥، الرحمن١٤، المائدة ٥٤ ... إلخ).

ويطلق الشاعر كذلك المعاني المتصلة بقصة نوح عليه السلام ويزيّنها باستخراج التشبيهات الأنيقة والاستعارات الرقيقة، وكذلك باستجلاب الرموز الدينية . وكثيراً ما يقارن الشاعر العيون الثرة بسيل طوفان نوح، ويلجأ لصوغ المعاني وصقلها إلى المقتبسات من القرآن.

عيوني كسفينة نوح في بحر دموعي
حذرت المخالفين وقالت «رب لا تذر»[١٣].

وهكذا فتن الشاعر في صوغ المعاني المتصلة بقصة إبراهيم عليه السلام ولمّح إلى إلقائه في النار،

● استقراء المعاني القرآنية في الأدب الأذربيجاني الكلاسيكي قضية هامة للغاية.

وبحثه عن ربه، و أرهص ببواكير بعض الصور البديعية عندما انتفع من قص القرآن عن أصنام آزر والد إبراهيم عليه السلام.

واتجه القاضي برهان الدين بكل وجوده إلى الانتفاع بالمعاني القرآنية حول قصة يوسف بتناول الجوانب المختلفة لهذه القصة، ومنها إلقاء يوسف في الجب وعلمه بتأويل الرؤيا وبيعه بثمن بخس، وتفشت في أشعاره المعاني المتصلة بقميص يوسف، وارتقى شعره بهذه المعاني إلى أعلى مستويات البديع:

أنت يوسف للدوران، أنا يعقوب للزمان
أحتاج إلى ريح قميصك كيعقوب العميان[١٤]

يجري القاضي برهان الدين كثيراً من التشبيهات والتلميحات المقتبسة عن قصة موسى عليه السلام، ويتأرجح الشاعر فيها بين الصور التقليدية القديمة والمبتكرة الجديدة. في إحدى غزلياته ينطلق لسان الشاعر بالاقتباس من القرآن الكريم (سورة طه الآية ٦٣).

من رأوا العينين الفتّانتين
« قالوا إن هذان لساحران»[١٥]

بمثل هذه التلميحات الأنيقة يعبر الشاعر عن مخيلاته في الحب الإلهي.

كذلك يعنى القاضي برهان الدين عناية واضحة بالمعاني المتصلة بقصة سليمان عليه السلام، وعلى الأخص بحكاية سليمان والنمل (سورة النمل، الآيتان ١٨-١٩) وبالقصص حول كرسي سليمان عليه السلام وخاتمه (سورة ص، الآية ٣٤) نجد في ديوانه المعاني المرتبطة بسورة «ق» ويذكر الشاعر داوود عليه السلام الذي « تبكي الجبال بنغمته» .

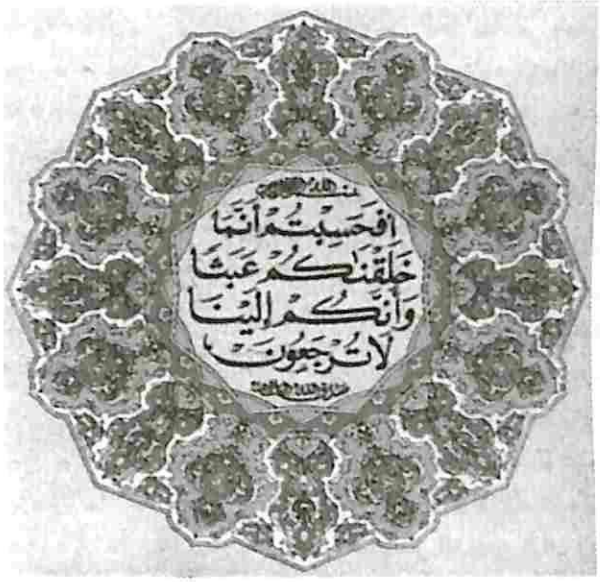

إن قصة الملكين هاروت وماروت (البقرة، ١٠٢) هي الأخرى من الموضوعات التي عرض لها القاضي برهان الدين . أما قصة عيسى عليه السلام فيتأرجح الشاعر فيها بين النسق التقليدي والنسق الجديد، وهو في مجازاته التقليدية يتكئ كثيراً على (الآية ٤٩ من سورة آل عمران)، ويظهر عيسى عليه السلام في مثل هذه التلميحات كمحيي الأموات، وحيناً بعد حين تواكب صورَه التقليدية صورٌ مبتكرة مستحدثة، لم نعثر عليها في النماذج الأخرى لأدبنا الكلاسيكي . وعلى هذا النسق الجديد انطلق الشاعر بمجازاته حول قصة أصحاب الأخدود التي لم تلفت انتباه الشعراء الآخرين كمنبع المجازات.

قلبي أخدود بنار الخدود
ولو أصبح العالم زمهريرا[١٦]

بلغ القاضي في هذا البيت أعلى درجة من البديع، وعبر عن عواطفه القوية الجياشة بألوان من المجازات من التضاد(أخدود - زمهرير) والتشبيهات (خد - أخدود - ، عالم - زمهرير، قلب - أخدود) والشيء اللافت للنظر هنا أن كل هذه المجازات لم تستتبع المعاني التقليدية الشبيهة الأخرى، والنماذج التي وردت في شعر القاضي هي نماذج فريدة.

قد استشهدنا في هذا البحث بأشعار القاضي برهان الدين، ببعض الأبيات المتصلة بالقرآن الكريم، ولا سيما بقصص القرآن وهي غيض من فيض، وقطرة من منهل المعاني القرآنية الذي تفجر على لسانه. وارتفع شعر القاضي إلى أعلى المستويات بالصور القرآنية، وأسهم الشاعر إسهاماً بالغاً في نموها، وبلغ درجة أعلى في صقلها وتشذيبها

● كان القاضي برهان الدين من فحول الشعراء المنشدين بالتركية ابتداء من القرن الثالث عشر.